

إسرائيل في تيههم. لكن «موسى» الأمريكي هنا أو إيهاب لا يقود شعبه إلى أرض الميعاد، وإنما إلى لجة الفناء حين تنتهي المطاردة بموت القبطان على يد الحوت وتحطم السفينة وموت جميع من فيها باستثناء راوي القصة الذي يحمل اسماً لا يخلو من دلالة في إطار التوراة، فهو إسماعيل (أو إشميل، كما يلفظ، والمعروف أن العرب في الموروث الديني والخيالي المسيحي هم «الإسماعيليين» أي أبناء إسماعيل). ويمكن الربط هنا بين الحوت وأرض الميعاد والقيم التي يحلم بها الراكضون نحوها، بل إن الرواية تخلق هذا الربط صراحة: ففي أحد الفصول نجد مقارنة بين الحوت من ناحية والديمقراطية وحرية الإنسان والعدالة التي يتحدث عنها الأمريكيون من ناحية أخرى، ومن المقارنة يبرز أن القيم المشار إليها ظلت في التجربة الأمريكية قيمةً زنبقية قد تؤدي مواجهتها إلى فناء يشبه فناء إيهاب وسفينته.

في حوالى منتصف القرن التاسع عشر جاء ملفل في زيارة شخصية إلى فلسطين، أو الأراضي المقدسة، كما يشار إليها أحياناً في الغرب، وذلك على أمل أن يخفف التجوال بين المنابع الأولى للتيارات الروحانية في الحضارة الغربية، وأمريكا بالذات، من تلك الرؤية الكئيبة المقلقة الممتزجة بغير قليل من الشك. لكن الكاتب الأمريكي لم يفد شيئاً من زيارته تلك التي سجل انطباعاته عنها في مذكرات قصيرة وفي قصيدة شعرية مطولة بطلها شاب اسمه «كلارل» تحمل القصيدة اسمه ويحمل هو نفس المعاناة التي عايشها مؤلفه.

ومثل ملفل جاء إلى فلسطين كُتّاب أمريكيون آخرون منهم مارك توين الذي سجل انطباعاته عن الزيارة في كتاب عنوانه *الأبرياء في الخارج* تمتزج فيه السيرة الذاتية بالخيال في إطار كوميدى لاذع السخرية. نشر هذا الكتاب في عام ١٨٦٩ وكان له دوي هائل في الولايات المتحدة نتيجة لموقف توين الساخر من رفاقه الأمريكيين وتدينهم الساذج والمنافق. وفي الوقت نفسه، فإن عنواناً كـ «الأبرياء في الخارج» يحمل بحد ذاته نقداً ساخراً لتصور الأمريكيين أنفسهم شعباً ولد لتوه ولما يزل بريئاً طاهراً. فمن قراءة الكتاب يتضح أن هذا الشعب الذي يمثله أولئك الحجاج إلى الأراضي المقدسة ليس بعيداً عن البراءة فقط، وإنما يحمل الكثير من نوازع الفساد والتدمير.

هذا النقد العنيف يشنه مارك توين في أعمال روائية أخرى أشهرها الروايتان